

الحضارة الانسانية الحآ أين ؟

د. قسطنطين زريق

- ١ -

ما فتى الإنسان منذ وجوده على هذه البسيطة يتساءل عن مصيره ويحاول أن يخترق حجب المستقبل القائمة أمامه. وتساؤله هذا هو مظهر من مظاهر ميزته الاستطلاعية لما حوله من أشياء وأحداث ولما يكمن وراءها من عوامل وأسباب - تلك الميزة التي اكتسبها خلال فجر تكوُّنه المديد، والتي لولاها لظلَّ سادراً في أحضان الطبيعة عاجزاً عن التقدم والرقى. بل اننا لا نخطئ إذا قلنا ان أنواع تساؤلاته - سواء بوجهها العام أو بعلاقتها بالمستقبل بوجه خاص - هو دليل على ما أحرز من تقدم وعلى ما اكتسب من انسانية.

على اننا اذا راجعنا التاريخ وجدنا ان التساؤل عن المصير يشتد في بعض الحقب أكثر منه في سواها. والحقب التي نعني هي تلك التي تحمل فيها الكوارث أو تحف بها الأخطار. ففي أوقات الدعة والسلام والاندفاع إلى الأمام يكون الانسان مطمئناً متفائلاً، فلا تثور في نفسه الشكوك ولا يخشى ما يخبئه المستقبل. أما الاوقات العصيبة، فهي أدعى إلى التوقف والتساؤل والتبصر في مسيرة الحياة واتجاهاتها ودوافعها. ولذا تبرز فيها المحاولات الواسعة النطاق لاستيعاب التاريخ البشري واستنطاق مجمل أحداثه، مما أصبح يعرف في الأعصر الأخيرة بفلسفة التاريخ. ولئن تكن هذه الفلسفة تتجه إلى الماضي، فان باعثها الأصلي هو القلق على الحاضر وعلى المستقبل. فلا غرابة اذن ان تكون أول محاولة من هذا القبيل قد ظهرت في العصور القديمة على يد القديس أغسطينوس في كتابه «مدينة الله» في الوقت الذي كانت تنداعى فيه الامبراطورية الرومانية العظيمة، وأن تأتئ أجل محاولات القرون الوسطى وأشدّها إبداً - وهي «مقدمة» ابن خلدون - في الحقبة التي شهدت تفكك الحضارة الاسلامية وأفولها. ولا عجب كذلك ان تغدو الآونة الحاضرة التي عصفت فيها الحروب المدمرة والثورات المتأججة والاضطرابات المنتشرة أرضاً

خصبة للتساؤلات المستقبلية، وللتعليقات التاريخية النابعة في أكثرها من القلق على ما هو كائن وعلى ما سيكون. والمتتبع لمجاري الفكر في العالم الغربي بخاصة، منذ الحرب العالمية الأولى، ليجد فيها الدليل اثر الدليل على هذا القلق الثائر والمثير. وتتوافر الأدلة بعد الحرب العالمية الثانية، وتشتد وتأثرها في العقدين الأخيرين، فإذا نحن أمام حشد متكاثر من المؤسسات والمعاهد، والمؤتمرات والندوات، والكتب والمقالات، والخطط والمناهج، وسواها من الجهود الفكرية والعملية التي يدفع إليها الاهتمام المتصاعد بمصير الانسان ومآل حضارته.

- ٢ -

الحضارة الانسانية: إلى أين؟ ثمة اليوم أجوبة متعددة على هذا السؤال الخطير، منها ما هو من تراث الماضي، ومنها ما جاء بفعل تطورات الحياة الحديثة والمعاصرة. وبديهي اننا لا نستطيع هنا الا حاطة بها كلها، ولكن قد يكون من المفيد أن نحاول تمييز أنواعها الرئيسية واتجاهاتها الكبرى، ولو كان في ذلك كثير من التبسيط لما تنطوي عليه طبيعتها من دقة وتعقيد ولما يتخللها من ترابط وتشابك.

من هذه الأجوبة ما منطلقه ديني. فهناك الهندوكية والبوذية مثلاً اللتان تنظران إلى الانسان في نطاق الحركة الكونية - وهي حركة الروح الالهية المطلقة - التي يجوز فيها الكون، ومن خلاله الحياة البشرية، دورات متتابعة لا نهاية لها، يرقى فيها الانسان أو ينحط حسب سلوكه وأعماله. وغاية الانسان هي أن يدرك حقيقة هذه الحركة الحتمية وان يجهد للتخلص من سطوتها بالتأمل الروحي وبالتنزه عن الأهواء والشهوات ليتصل بالروح المطلقة ويفنى فيها. فالخلاص أمر فردي، ومنوط بجهد صاحبه، وليس ثمة اهتمام بالحضارة أو بالجموعة البشرية كما نفهمها اليوم، وليس لهذه أو لتلك مصير نهائي تقف عنده. أما الأديان الموحدة - اليهودية والمسيحية والاسلام - فانها تتفق - على ما بينها من اختلاف - في ان هناك بداية معينة للكون الطبيعي وللحياة البشرية وحداً لنهايتها، وان البداية والنهاية ومسيرة التاريخ بينها هي كلها بقدره الله تعالى وعنايته، وان النهاية تأتي بزوال هذه الدنيا الفانية وقيام الآخرة الباقية. وفي أزمته القلق والاضطراب يتخذ بعض المؤمنين - كما تفعل بعض الفرق الدينية اليوم - مظاهر الاضطراب دليلاً على قرب الساعة الفصل بين الأولى والأخرى. وكل ما يهمننا الإيماء اليه هنا، في نطاق موضوعنا، هو ان قطاعات واسعة من البشر اليوم تحجب على سؤالنا عن مصير الحضارة البشرية من خلال هذه المعتقدات الدينية وأمثالها السائدة في شتى أصقاع العالم.

هذا نوع من أنواع الأجوبة. وهناك نوع آخر ذو جذور فلسفية. وهو يضم صنوفاً مختلفة متفرعة. بعض هذه الصنوف تنحى منحى التحتم، وأخرى تؤكد حرية الانسان ومسؤوليته عن مصيره. ومن هذه وتلك، ما هو تفاؤلي، ومنها ما هو تشاؤمي (أو «واقعي» كما يدعي بعض أصحابه). ومن الأمثلة العديدة

على الصنوف التحتمية : نظرية التقدم المستمر بفعل التطور العقلي الانساني. التي نادى بها فريق نافذ من مفكري عصر التنور (القرنين السابع عشر والثامن عشر) وأبشت تفاؤليتها في الأجواء الغربية عامة، ونظرية الارتقاء التي استمدتها بعض الفلاسفة من تحقيقات داروين البيولوجية، والعقيدة العلمية الاشتراكية القائلة بحتمة تقدم المجتمعات البشرية عن طريق تطور قوى الانتاج وصراع الطبقات نحو المجتمع الشيوعي الذي تسود فيه العدالة والمساواة والأخوة الانسانية، ونظرية ازوالد شبنجلر في حتمية الدورات التي تمر بها كل حضارة من الحضارات الانسانية نشوءاً وازدهاراً وتجمداً وانحطاطاً، وبالتالي حتمية انحطاط الغرب المعاصر. أما الصنف الذي يؤكد اختيار الانسان ومسؤوليته، فله أيضاً ممثلون عديدون، لعل من أبرزهم في الآونة الأخيرة، أرنولد توينبي الذي يبني نظريته التاريخية الشاملة على مبدأ التحدي والرد، ويربط نشوء كل حضارة من الحضارات ونموها بقدرتها على رؤية التحديات التي تجابهها وادراك حقيقتها والرد عليها رداً إبداعياً، كما يربط تفكك الحضارة وانهارها بفقدانها هذه القدرة على الرد الإبداعي. ومع ان جميع الحضارات السابقة قد فقدت هذه القدرة وانتهت إلى انهيار، فان هذا لا يعني ان الانهيار هو - كما قال شبنجلر - قدر محتّم وانه مكتوب على الحضارة الغربية المعاصرة، وانما أمر هذه الحضارة بيدها، فإما أن تبقى وتتقدّم، وإما أن «تنتحر» وتزول كما فعلت الحضارات السابقة.

وثالث الأنواع الرئيسية التي نشير إليها هو النوع الذي برز حديثاً، وبخاصة في العقود الثلاثة الأخيرة التي تلت الحرب العالمية الثانية والتي جاشت فيها تغيرات غزيرة ونزعات محدمة، وأهم هذه النزعات اثنتان منطلقتان انطلاقاً شديداً: نزعة العلم (نظراً وتطبيقاً) إلى التقدم المتسارع وإلى الفعل النافذ في الطبيعة وفي الحياة الانسانية، ونزعة الطبقات والشعوب، التي ظلّت عصوراً طويلة مستغلّة من قبل الاقوياء المستلطين عليها، إلى اكتساب حقوقها وصون كرامتها. وبفعل هاتين النزعتين وسواهما من القوى الفاعلة في هذا العصر، وبنتيجة الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية التي أثارها هذه القوى والنزعات، أخذ فريق كبير من المفكرين المعاصرين يتساءل عن مصير الحضارة البشرية ويحاول استبصاره. ذلك انه بدأ يتضح للأذهان ان هذه الاضطرابات، وما تنطوي عليه من مشكلات متفاقمة، ليست وقائع منفصلة بعضاً عن بعض، بل هي متصلة مترابطة فيما بينها، وأنها لا تتناول نواحي خاصة متفرقة من الحياة، بل تنسحب عليها جميعاً، وتكوّن بمجمعلها أزمة عميقة منتشرة تجوزها الحضارة البشرية المعاصرة. فما هو جوهر هذه الأزمة، وما هو مآلها: إلى استقرار وانبعاث ومزيد من التقدم، أم إلى زوال متفجر سريع أو متدرج بطيء؟

ان ما يميز هذا النوع الثالث من التساؤلات والتحريات هو انه يحاول اتباع الاسلوب العلمي في نقصي الأحداث ومراقبة التحولات، ويفيد من جميع الاختبارات التي اكتسبها العلم في حقول المعرفة

المختلفة، دون التقيد بعقيدة سابقة دينية أو فلسفية أو غير ذلك. ويؤلف علماً جديداً، أو نواة علم جديد، غايته التكهن والاستبصار المستقبلي. وهو علم شديد المطالب، صعب المراس، معقد الاسلوب، ولكنه في الواقع خليق بأن يكون «علم العلوم» لهذا العصر المضطرب. وقد أصبح له رجاله المختصون، ومعاهده ومؤسساته، ومؤتمراته وندواته، وكتبه ومحلاته ونشراته، كما ان له آثاره في ما تعتمد إليه الهيئات الرسمية والخاصة من تخطيط وبرمجة. ولكن أسسه وطرائقه لم تستقر بعد، كما لا يزال بمجموعه - غاية واسلوباً ونتائج - مجالاً للتجاذب والتناقض بين المؤمنين به الحاملين لواءه والناقدين الشاكّين أو المنكرين.

- ٣ -

بعد هذه اللمحة العاجلة للاتجاهات الرئيسية في الاجابة عن السؤال المطروح في هذا المقال، يحسن بنا أن نقف وقفنا الخاصة وان نحاول رسم بعض الخطوط التي يمكن أن تشير إلى الاجابة المنشودة. والاسلوب الذي سنتبعه في هذه المحاولة هو تحريّ القوى السلبية والقوى الايجابية الفاعلة في الحضارة البشرية المعاصرة، قصد الموازنة بين حاصلتيهما، والتوصل إلى إستبانة أية منها ترجح على الأخرى. وإذا أردنا أن نستعمل لغة توينبي قلنا اننا سنتحرى التحديات التي تجابهها هذه الحضارة والقدرات التي تملكها للردّ عليها. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى ان أهم التحديات كامنة في داخل هذه الحضارة وليست خارجة عنها. ذلك ان الحضارات البدائية أو تلك التي جازت خطى تطورية محدودة تجابه في المقام الأول تحديات خارجية منبعثة من الطبيعة المحيطة بها. وكلما سارت في طريق التطور بدأت تظهر وتفاعل فيها التحديات الداخلية الناشئة عن تصرفات الانسان تجاه محيطه الطبيعي والبشري. أمّا حضارتنا المعاصرة، فقد بلغت قوافلها المتقدمة على الأقل، شوطاً بعيداً في التغلب على التحديات الخارجية وفي التسلط على قوى الطبيعة، وغدت تحدياتها الكبرى تحديات داخلية مصدرها الانسان المعاصر ذاته، ومدى قدرته على حلّ المشكلات السياسية والاجتماعية والعقلية - ولتقلّ الحضارية بوجه عام - التي تزخر بها حياته.

فما هي أهم هذه التحديات أو الأخطار؟ نكتفي بالإشارة إليها بإيجاز، لأن المقالات الأخرى في هذا العدد ستعرض، لاشك، لها وتبرز مضموناتها والتوقعات بشأنها.

١ - خطر الحرب الماحقة: ان الانسانية اليوم تجابه خطر حرب هائلة سواء من حيث التفتيل الجماعي أو التدمير الحضاري. وإذا حدثت، لا سمح الله، فإن آثارها ستبلغ أضعاف ما أحدثته الحربان العالميتان السابقتان، إنها ستكون مثلهما - بل أكثر منهما. - حرباً عالمية شاملة يلفّ نطاقها العالم بأسره، وستأتي أوسع فتكاً بالمدينين منها بالعسكريين. ومع هذا، فإن ميدانها الأساسي سيتركز في الدول الصناعية الكبرى حيث تزدحم مصادر القدرة ومعالم الحضارة الحديثة. وعلى ما بلغت الأسلحة التقليدية من تطور مريع، فإن هذه الحرب لن تقتصر عليها، بل ستعتمد في المقام الأول

الأسلحة النووية المفجرة، وقد تصحبها وسائل التفتيل الجراثيمية والكيميائية التي تعادها أو تفوقها طاقةً إبادية. وكمثل واحد على مدى الطاقة التدميرية النووية، نذكر ان آخر القنابل المتطورة غير النووية التي استعملت في الحرب العالمية الثانية كان لها فعل عشرة أطنان (TNT)، فجاءت القنبلة النووية التي هدمت هيروشيما تفوقها ١٣٠٠ ضعف (أي فعل ١٣,٠٠٠ طن). أما اليوم، فان طاقة الرأس النووي الواحد قد ترتفع إلى ٢٥ مليون طن، أي ما يقارب ألفي ضعف طاقة قنبلة هيروشيما. ويقدر مجموع الطاقة التفجيرية التي تمتلكها الدول النووية بما يفوق ٥٠ مليار طن (TNT). هذا اذا أهملنا، كما قلنا، الأسلحة التقليدية المتكاثرة المتطورة والوسائل الكيميائية والجراثيمية الأوسع فعلاً والأشد خطراً.

وقد روي عن الرئيس بريجنيف قوله لفريق من الشيوخ الأميركيين الذين زاروا موسكو في شهر تشرين الثاني - نوفمبر الماضي انه هو الرئيس كارتر لديها من القوة ما يمكنها خلال دقيقتين من ان يطلقا القذائف النووية الموجهة، وان الولايات المتحدة اذا أقدمت على ذلك «فسنظل قادرين على تدميرها»^(١). ومهما يكن في هذا القول وأمثاله من قادة القوتين العظميين - الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي - من مظاهر الدعاوة والتحويل، فان المختصين بالشؤون العسكرية والاستراتيجية يؤكدون جوهر هذا الواقع، أي الطاقة الابادية الصاعقة التي يمتلكها الجانبان. على ان الرأي الغالب هو أن هذه الطاقة قد بلغت من الضخامة والخطر والتوازن حدًا يدرك هوله قادة الفريقين وأعوانهم، ولذا نراهم يتبيونون ويتجنبون التورط في ميدانه، لأن التدمير الساحق الذي ينتج عنه لن ينحصر في أحد الجانبين فحسب، بل سيتناول الآخر أيضاً ويشمل الانسانية جمعاء. ومن هنا القول المردد: إن العالم يعيش اليوم تحت وطأة «توازن الرعب». والسؤال الخطير هو: هل سيدوم هذا «التوازن»، ام سيختل وينقلب بتفوق فريق من الفريقين على الآخر تفوقاً يغريه باتخاذ الخطوة الأولى طمعاً في سيادة العالم، أو بمجازفة قوة نووية صغرى وتوريطها للقوى الكبرى، أو بخطأ من الاخطاء التكنولوجية أو البشرية، أو بسبب آخر من الأسباب. وإن دام هذا التوازن، فهل هو ضمان حقيقي للسلام تستطيع الانسانية ان تركز اليه وتستقر في اجوائه؟ الواقع ان هذه الأجواء ليست أجواء سلام واطمئنان واستقرار، ومهما تبعد امكانات وقوع هذه الحرب الماحقة، فانها تظل قائمة، وتبقى اعباؤها ثقيلة الوطأة على الانسانية وحافلة بالمخاطر على الحضارة والتقدم، بل على استمرار الحياة البشرية.

٢ - خطر الحرب الباردة والحروب الموضعية: ان هذه الحروب ناشبة في عالمنا اليوم، الأولى منها ساطية وفاعلة مهما يتحدث أرباب القوتين العظميين عن «التعايش» و «الانفراج». ونحن نلاحظ تعثر الخطى التي تتخذها هاتان القوتان، أو الجبهات التي تزعمها كل منهما، أو المنظمات الدولية، في سبيل تحديد التسليح والتجهز العسكري. حتى لو نجحت هذه الخطى وانتهت إلى اتفاقات، فنن يضمن بقاء هذه الاتفاقات؟ ومن يضمن تورع القوتين العظميين أو قوى أخرى عن التنازع الاقتصادي والايديولوجي والاستعماري وغيرها

من وجوه الحرب الباردة التي ما تفتأ تزرع أسباب الاضطراب والبلبله في عالم اليوم والتي يخشى أن تظل تنميا في عالم الغد.

أما الحروب الموضعية فهي قائمة أيضاً، وستظل قائمة ما دامت أسبابها ناشطة. من هذه الأسباب ان كثيراً من الدول التي استقلت حديثاً قد ورثت حدودها من عهد الاستعمار الذي كانت الدول الأوروبية تنقسم فيه للمستعمرات ومناطق النفوذ. فلم تكن هذه الحدود طبيعية، بل ضمت تناقضات جنسية وقومية ما تزال مبعث اضطراب وانقسام. ومن هذه الأسباب هبات شعوب هذه الدول لخلق كيانات وأنظمة جديدة لم تستقر بعد، وتعارض هذه الأنظمة والكيانات في ما بينها، وتغذية الدول الكبرى لهذه التناقضات الداخلية والخارجية اتباعاً لمصالحها ومطامعها. ومنها - وهو الأهم - محاولات هذه الدول الكبرى للسيطرة على الدول الناشئة، وتدخلها في شؤونها اما بمساندة نظام من الأنظمة أو بالعمل على قلبه أو إنهاكه. كل ذلك في نطاق «لعبة الأمم» التي تديرها مراكز القوى العسكرية والاقتصادية في الدول الكبرى والتي تجمع بين يديها خيوط الفعل والتأثير فتشدها أو ترخيها، وتنسجها أو تحلها، طبقاً لسياساتها واستراتيجياتها العالمية ولقوانين الصراع القائم بينها.

وما دام العالم على ما هو عليه، فسيظل يشهد حرباً باردة بين القوتين العظميين أو بين غيرها من القوى والجهات الكبرى على مسرح الصراع العالمي. وما يرافق هذه الحرب الباردة الشاملة من حروب موضعية هنا وهناك. ومع ان الدول العظمى ستحرص على عدم تسخين الحرب الباردة بينها من جهة، وعلى ابقاء الحروب الموضعية ضمن حدود معينة من جهة أخرى، فانه سيظل لهذه ولتلك آثارها السلبية في نشر الاضطراب وفي تسميم الأجواء، وبالتالي في اعاقه مسيرة الشعوب في سبيل التحرر والتقدم والتحضّر.

٣- **اخطار التسلح والتسلح الاقتصادية والاجتماعية:** بالإضافة إلى خطر الحرب الساحقة على بقاء الحضارة والحياة، وإلى اخطار الحرب الشاملة الباردة والحروب الموضعية في اشاعة الاضطراب، فان في التسلح الذي يتطلبه الاستعداد للأولى والانخراط في الثانية والثالثة اخطاراً اقتصادية واجتماعية لا بدّ من التوقف عندها وكشف مضموناتها. وأهم هذه الاخطار ثلاثة:

أولها، امتصاص نسبة كبيرة من الثروة العالمية، المادية والبشرية، وتحويلها عن المطالب الملحة في التنمية والاعمار. فدول العالم تنفق اليوم ما يفوق ٣٥٠ مليار دولار سنوياً على شؤون «الدفاع»، وكانت نسبة الدول النامية منها عام ١٩٦٠ تسعة بالمائة فارتفعت عام ١٩٧٦ إلى ١٨ بالمائة اي ما يوازي ٦٣ مليار دولار^(٢). ان هذا الانفاق العالمي على التسلح يساوي مجموع الدخل السنوي للمليارين من البشر في الدول الفقيرة، وهو يفوق بنحو سبعة بالمائة، ما ينفقه العالم على التعليم المدرسي (سن ٥ - ١٩) للمليار وثلاثمائة مليون من التلامذة، ويبلغ حوالي ضعف ما ينفقه على الخدمات الصحية الحكومية بمختلف اشكالها (ان

معدل الانفاق التعليمي السنوي هو ٢٣٠ دولاراً على كل تلميذ في المدرسة، بمقابل ١٤٨٠٠ دولار على كل مجتد. ومعدل الانفاق الصحي السنوي على كل فرد هو ٤٤ دولاراً، بمقابل ٨١ دولار للانفاق العسكري). كل هذا في وقت لا يتعدى فيه معدل الدخل السنوي للمليارين ونصف من ابناء الشعوب الفقيرة (أي حوالي ٧٠ بالمائة من سكان المعمور) ٢٥٠ دولاراً، وحين يشكو ٥٤٠ مليوناً منهم من سوء التغذية، ومليار وأربعائة مليون من تلويث المياه، و ٥٠٠ مليون فتى وفتاة في البلدان النامية من البقاء خارج المدارس وربع سكان المعمور الراشدين من جهل القراءة والكتابة^(٣).

ان هذا الهدر لا يقتصر على الموارد المادية فحسب، بل يتناول القوى البشرية أيضاً، اذ يبلغ الذين تشملهم الأعمال العسكرية من مجتدين وسواهم ستين مليوناً من البشر، لو حولت نشاطاتهم إلى الشؤون الاجتماعية لاسهموا في تلبية المطالب الهائلة البارزة في حقول التنمية والاعمار.

ولهذا الهدر ظاهرتان خطيرتان: الأولى انه آخذ في التصاعد سنة بعد أخرى. وليس أدل على ذلك من ان الطلبات المتراكمة لشراء الأسلحة تبلغ بين ضعفين وثلاثة أضعاف مما يسلم منها حالياً، وان الانفاق العسكري العالمي ارتفع بين ١٩٦٠ و ١٩٧٦ بمقدار ستين بالمائة (هذا بأسعار ١٩٧٤ وبسعر الدولار في ذلك العام، اما بالارقام المطلقة فقد تصاعد أربع مرات)، وهو سائر في الارتفاع. أما الظاهرة الثانية فهي انه يكون أحد العوامل التي توسع الشقة المنفسحة بين الدول المنة والدول النامية. فان امتلاك الدول المنة لخاصية التكنولوجيا العسكرية وإقبال النامية على شراء مصنوعات، يعمل في اغناء الاولى وفي افقار الثانية وفي تكبير الفوارق بينهما في القدرة والرخاء.

أما الظاهرة الثانية الخطيرة لهذا التسلح المتصاعد فهو انه يضع في أيدي المسيطرين عليه قوة سياسية متزايدة، سواء في الدول المنة أو في الدول النامية. أما في الأولى، فان تضخم الصناعات العسكرية والصناعات الأخرى المتصلة بها وما تدره على البلاد من مداخيل وما تشغله من عمال، كل هذا يوسع سلطة أصحابها في صنع القرارات السياسية وتوفير الاعتمادات المالية في ميزانية الدولة لخدمة أغراضها. ولقد شكك الرئيس إيزنهاور من تفاقم نفوذ «المركب الصناعي العسكري» في الولايات المتحدة، وما زال أثر هذا النفوذ ينمو فيها وفي غيرها من الدول الكبرى ويفعل فعله في توجيه السياسات الداخلية والخارجية. أما في الدول النامية، التي لم يصلب عود الديمقراطية فيها. فان القوى العسكرية، المجهزة بالأسلحة وبالمال، تجد المجال منفسحاً أمامها لتسلم السلطة، تحت شعار توحيد قوى الأمة لدرء الأخطار الخارجية ولتلبية حاجات الجماهير، مما أدى إلى الانقلابات المتتابة في دول العالم الثالث، وإلى سيطرة العسكريين المتزايدة في ربوعه، وما استتبع ذلك من تضيق الحريات واعاقة نمو الديمقراطية وخلق «طبقة جديدة» من الحكام النافذين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وتقييد المبادرة الفردية في النشاط الاقتصادي، وتدنّي الانتاج الوطني بصورة عامة.

بقي خطر ثالث ، وهو الخطر الخلقي ، الذي له وجهتان على الأقل . الوجهة الأولى هي إنماء روح الضغينة والحقد في عصر لم يعد للانسانية فيه من ضمان للتقدم والبقاء إلا تعاطف الشعوب وتلاحمها واستبانتها لوحدة مصيرها ، نظراً للروابط المتوائمة التي يصنعها تقدم العلم وللأخطار الرهيبة التي يجرّها الانقسام والتصارع والاقتتال . أمّا الوجهة الثانية ، فهي ما تفسدحه تجارة الأسلحة من مجالات للفساد والإفساد ، عن طريق الاغراء والرشوة ، واستخدام الوسطاء والعملاء ، وتوفير الربح الهين الرخيص ، والتلاعب بالسلطة ، والاستهانة بالقيم السديدة الفردية والقومية .

٤ - اخطار «التقدم» : لقد كان «التقدم» في العصور الحديثة رائد الشعوب الغربية التي سبقت غيرها من الشعوب إلى حمل لوائه والسير في مضماره . ولقد غلب على هذه الغاية المبتغاة معنى السيطرة على الطبيعة واستغلال مواردها وتوفير الوسائل للشعوب لتحسين معاشها وترقية أوضاعها . وفي العقود الأخيرة طغى على هذا الشعار ، شعار «النمو» أو «الانماء» ، وانحصر مؤداه أو كاد بالقدرة على الانتاج المادي ، فصُنفت الشعوب حسب هذه القدرة ، وقيس «نموها» أو «تقدمها» بمقدار ناتجها الوطني القائم أو دخل أفرادها السنوي . وتعالّت الدعوات للشعوب المتخلفة إلى حث الخطى في مجالات التقدم أو إلى الاسراع في عملية الانماء . وقد حدث هذا ، وما زال يحدث باستمرار وتضاعف ، في الوقت الذي أخذ فيه فريق من مفكري الشعوب «المتقدمة» أو «النماء» ينه إلى الاسواء التي جلبها هذا التطور بمفاهيمه التقليدية ، ويحذّر من هذه الاسواء التي تنذر بكموارث عاصفة مفاجئة ، أو مؤذية مستديمة ، اذا لم تتدارك السلطات والشعوب الامر وتضع حداً لهذا «التقدم» أو «النمو» يصونه ويصونها من شروره .

ولما كانت هذه التحذيرات قد تكاثرت ، وأخذت تتدفق من الأفراد المفكرين أو العاملين ، ومن المؤسسات المعنية ، ومن الهيئات الدولية وفي مقدمتها منظمة الأمم المتحدة ، فاننا نكتفي هنا بالإنباء إلى المشكلات التي تتوجه إليها دون الدخول في تفصيلاتها ، وذلك في نطاق نظرتنا العامة للوضع الحضاري الانساني الراهن وتساؤلنا عن مصيره . ان أهم هذه المشكلات هي :

(أ) «التضخم السكاني» الذي بلغ في العقود الأخيرة حدّاً مثيراً ، اذ ان سكان الأرض يتضاعفون اليوم في مدى خمسة وثلاثين عاماً ، ويقدر ان يبلغوا سبعة مليارات في مطلع القرن الحادي والعشرين ، وعشرين ملياراً في أواسطه ، وهذا التكاثر له آثاره الاقتصادية والاجتماعية والمعيشية الواضحة . ومن أخطر مضاعفاته ان معدله يعلو في البلدان النامية بخاصة ، فيزيد بالتالي الاعباء الضخمة التي تنوء بها هذه البلدان ويعيق تطورها ويوسع الشقة بينها وبين البلدان النماء .

(ب) تناقص الموارد الطبيعية : لقد أقبل الانسان الحديث على الطبيعة يستغل مواردها ويسيطر عليها نشاطه التصنيعي دون حذر أو تورع ، فبذر ما بذر وأهدر ما أهدر ، واذا به اليوم يكتشف ان لهذه الموارد

حدوداً معينة. وانه اذا لم يكبح الانجراف الاستغلالي التصنيعي، فسيصطدم بهذه الحدود لا محالة ولن يجد من الموارد ما يكفي لضمان نموه أو لاستمرار حياته.

(ج) تلويث البيئة الطبيعية: ان هذا الانجراف الاستغلالي التصنيعي لم تقتصر أسوأه على التبذير والاسراف، بل عمل في افساد البيئة الطبيعية بما قذف في أجوائها، وفي بحارها وانهارها وبحيراتها، من موارد مضرّة وسوم منتشرة، وبما احدث من تغييرات طبيعية سيتفاقم شرها في المستقبل فيهدد سلامة الحياة أو يزيد مشقتها.

(د) تضائل الريف وتضخم المدن: ان هذه الظاهرة، البادية في المجتمعات المنة والنامية على السواء، تأتي بمساوئ تتضح وتبرز يوماً بعد يوم: كامتصاص حيوية الريف وبعثرة مدخراته من التراث الاجتماعي والقومي، واتساع المدن اتساعاً مريعاً حتى أشرف بعضها كنيويورك على الافلاس وعجز البعض الآخر عن توفير الخدمات الضرورية في السكن والنقل والاتصال والنظافة العامة وما إليها، وانتشار الشعور بالبؤس والاغتراب والنقمة بين جاهير المدن، وانبثاق مفاصد الحضارة في أوساطها.

(هـ) تزايد الانحراف والعنف والاجرام: وهذا أمر لا يحتاج إلى بيان. فأخبار الصحف ملأى به. وهو في تزايد مطرد، وقد أصبح من أخطر المشكلات التي تجابه الدول والمجتمعات، لما له من أثر في خلخلة الأمن وقلقلة الاقتصاد وإثارة النزعات، وأهم من هذا كله في ضعضة القيم والمقاييس وتدهور الاخلاق.

٥ - خطر اتساع الفوارق في المجتمع البشري واحتدامها: ان الفوارق البشرية قديمة قدم التاريخ، فلقد اختلفت الشعوب اجناساً ولغاتٍ وأدياناً وثقافات ومواقع جغرافية ونظماً سياسية واقتصادية واجتماعية. وكانت هذه الفوارق من أهم أسباب النزاعات والحروب والاضطراب والتشتت، فجزّت على الشعوب بأفرادها، وعلى البشرية بمجموعها، المآسي والشروخ التي ترخر بها صحائف الماضي. ومن ناحية أخرى كان لهذه الفوارق وجهها الايجابي، اذ تعددت الحضارات وتنوعت ميزاتها وعطاءاتها، فاغتنى التراث الانساني بهذا التعدد والتنوع، وبالتفاعل الذي قام بين أجزائه وعناصره. ومن الصعب، بل لعله من العبث، ان نحاول الموازنة بين جوانب الشر وجوانب الخير في هذا الميدان.

على ان ما تهمننا ملاحظته هنا هو ان التطورات الحديثة كانت باتجاه تقليص جوانب الخير وتضخيم جوانب الشر. ففياً يختص بالأولى، نرى ان الاغتناء الحضاري الناتج عن اختلاف الثقافات والشخصيات المجتمعية قد بدأ يحف بسيطرة الحضارة الغربية الحديثة على سواها. فان ما تمتلكه هذه الحضارة من أسباب

القوة والنفوذ جعلها تنتشر من مواقعها التاريخية وتكتسح المواقع الأخرى واحداً بعد الآخر، فإذا مستحدثاتها المادية وأساليبها المعيشية ونظمها السياسية والاقتصادية، وكتبها ومحلاتها وأعلامها واذاعاتها تصل إلى جميع أصقاع العالم، وتوشك أن تلبسها كلها لباساً واحداً وتصبغها بلون واحد. وفي هذا ما فيه من إفقار للمآلي المنبعثة من تنوع الهويات الحضارية وتفاعلها وتخاصبها.

أما إذا نظرنا إلى الناحية السلبية لأثر التطورات الحديثة في هذا المضمار، فإنا نجد أن هذه التطورات لم تستطع أن تزيل الفوارق البشرية وآثارها السيئة، بل على العكس، ضخمت هذه الفوارق ونفخت فيها أنفاساً جديدة جعلتها تتسع شقة وتزداد احتداماً. فالاختلافات الجنسية والثقافية لم يكن لها في أي من العهود الماضية ما للاختلافات القومية الحديثة من فعل في تباعد الشعوب وتنافرها وتحاربها. ولئن خفت حدة الحروب الدينية، وانحصر نطاقها، فلقد خلفتها وفاقها خطراً الحروب الأيديولوجية. والفروق بين الشعوب الغنية والشعوب الفقيرة لم تبلغ يوماً من البعد والشدة ما هي عليه اليوم، ولم يكن للأولى من السلطة على الأخرى ومن القدرة على التلاعب بمصائرهما مثل ما للشعوب المتقدمة اليوم بالنسبة إلى المتخلفة. ولم ينفلت التطور التقني كما انفلت في هذه الآونة، فعجز التطور في الأفكار والنظم عن اللحاق به العجز الرهيب الذي نخبره ونحمل اعباءه. ولم تقم في الماضي فجوة بين التطور التقني والعلمي والتطور الخلقى شبيهة بالفجوة التي نشهد في عصرنا هذا ومفعمة بمثل أخطارها الناشئة ونذرها الماثلة. ولم تكن ثمة مفارقة بين رغبات الشعوب المتخلفة وقدراتها قريية من المقارفة الحاضرة، الناتجة عن اضطراب الآمال وثوران المطامح إلى نيل الحقوق واكتساب الحرية والكرامة. إن دينامية الحضارة الحديثة قد انبثت في هذا كله، فباعدت أكثر مما قربت، وأشعلت أكثر مما أطفأت، وأثارت أكثر مما هدأت، فإذا الاضطراب الناتج عن الفوارق المتسعة والمنازعات المحتدمة يعم العالم كله ويحاجبه شعوب الأرض طرّاً بتحديات قديمة وجديدة، حاضرة ومقبلة، شديدة الأثر في توجيه المسيرة الانسانية في مراحلها التالية.

هذه بعض الاخطار والتحديات الرئيسية التي تحيط بالانسانية اليوم، وقد أشرنا إليها بإيجاز، واكتفينا بها دون سواها، لأن هذا المقال لا يتسع لأكثر من ذلك.

- ٤ -

نتقل الآن إلى الصفحة المقابلة من الموازنة التي نحاول رسم خطوطها في سبيل تقييم الحضارة المعاصرة واستبصار مسيرتها المقبلة. ما هي القدرات التي تمتلكها الانسانية لمجابهة الأخطار المحيطة والتحديات البارزة والأعباء التي تزداد ثقلًا يوماً بعد يوم؟ ما هي النسبة بين ما للانسانية وما عليها، وأيهما أوفر وأرجح؟ إننا نرى نوعين من القدرات يشملان مختلف المؤهلات والتجهيزات التي تتمتع بها الانسانية والتي تولف مجمل ثروتها الإيجابية، وهما: قدرة العلم، والقدرة المستمدة من التراث التحرري.

لا شك ان العلم هو أعظم القدرات التي يمتلكها الانسان المعاصر. ولم يعد الأمر بحاجة إلى بيان، فان التطورات المتلاحقة التي يحوزها العلم في مختلف الحقول تطالعا كل يوم بالجديد العجيب من المنجزات والمآثر. ومهما يكن المقياس الذي نتخذه لقدر تقدم المعرفة، فلا جدال في هذا التقدم، وفي تسارعه، وفي بلوغه حداً من الثورية لم يعرفه أي من العصور السالفة. وما هذا الا لخصائص في العلم يتميز بها عن غيره من الجهود الانسانية، وأهمها تراكميته وشموليته. فان أي مكسب علمي جديد يضاف حتماً إلى المكاسب السابقة فيغنيها ويبي السبل لمكاسب تالية. ولا يصح هذا بالضرورة على الدين أو الأدب أو الفن. ومع ان مسيرة العلم قد تعثرت هنا أو هناك، فضاعت مكاسب سابقة أو تجاهلها الناس، فان العقل الانساني التائق إلى المعرفة ما لبث ان عاد إليها واكتشفها وأحيها، ومضت المسيرة في تقدمها المستمر عبر الظلمات والانحرافات. أمّا الخاصة الثانية، فهي ان العلم عالمي النطاق لا ينحصر في حدود شعب أو بلد، ولا يلتصق بجماعة النصارى يمنع من تجاوزها إلى الجماعات الأخرى. قد يتميز به قوم أو أقوام في عهد من العهود، وآخرون في عهود أخرى، ولكنه في مجموعه يؤلف تراثاً عاماً اشتركت فيه جميع الشعوب المتحضرة، وأثره شامل للشعوب كافة، سواء أكان لها سهم سابق فيه أم لم يكن. وبسبب هاتين الخاصتين وسواهما من الخصائص، كان للعلم تقدم مستمر عبر التاريخ، بل لعلّ هذا التقدم هو الصورة الوحيدة لتقدم الانسانية الایجابي خلال العصور. وبسبب هذه الخصائص الذاتية، وبنتيجة التطورات التي حفلت بها الحياة الانسانية في الأعصر الأخيرة والتي كان للعلم أثر بارز فيها، تسارع التقدم العلمي في هذه الأعصر، وفي العقود الأخيرة بوجه خاص، وما زال هذا التسارع قائماً ومشتداً، و«ثورياً» بأوضح معاني الثورية وأعمقها.

لا حاجة بنا إلى تفصيل مآتي هذه الثورية العلمية في الحاضر ووعودها للمستقبل. فالمعرفة النظرية تنطلق انطلاقةً حثيثةً على جميع الجبهات، بحيث يصعب على المختص بجهة ما اللحاق بها، ولذا نرى الجبهات تنقسم وتضيق والاختصاصات تتفرع وتنوع، ومع هذا يبقى العلماء في لهث دائم لتتبع الاكتشافات الجديدة والتطورات الحاصلة في حقولهم المعينة في الضيق والاختصاص. ويكثر العلماء، وترصد لهم الموارد المالية المتزايدة، وتعدد مؤسسات البحث في الجامعات وخارجها، فيمتد نطاق المعرفة ويتسع بسرعة تكاد تسابق الخيال وبانجازات تذهل العقل وتريعه أحياناً. ومثل هذا أيضاً في المبادئ التطبيقية، بل ان ما يحدث هنا أبين للعيان، لأنه لا يقتصر على الخاصة من العلماء بل يبدو للناس كافة في الأدوات المستحدثة والمصنوعات المتجددة وفي التقنيات المتطورة التي تؤثر تأثيراً مباشراً في حياة الأفراد والجماعات. وبفضل هذا التقدم في المعرفة النظرية والتطبيقية استطاع الانسان المعاصر أن يغزّر الانتاج المادي زراعةً وصناعةً ونقلًا وتبادلاً، وأن يوقّر للبشرية ما لم تكن تحلم به سابقاً من وسائل لسدّ الجوع ومكافحة المرض والجهل ولرفع مستوى العيش بوجه عام. وبفضله أيضاً تمكن من سبر جزيئات المادة وشرط الذرة واكتشاف

القوة النووية الهائلة والبدء باستخدامها، وارتفع إلى أجواء الفضاء وعلّق فيها محطات تدور فيها وتستكشف أحوالها وأحوال عوالمها، وبلغ القمر وأنزل رواداً على سطحه وهو يطمح إلى المزيد من التوغل في تلك العوالم، استطلاعاً لها واستفادة من مواردها إذا أمكن. وأوجد عقولاً اصطناعية تكاد توازي عقله أو تتفوق عليه في بعض القدرات، وتنبئ بأنها ستمضي في هذا التفوق في المستقبل.

وبازاء هذه القدرات الباهرة، بدأت تبدو في الآفاق قدرات أشد روعة وأبلغ خطراً. فإن ما تقدم ذكره يتصل جلياً بالطبيعة: باستكناه أسرارها واستخراج مواردها وبسط سلطة الانسان عليها. أما القدرات الجديدة فهي تتجه إلى الانسان ذاته بهدف التأثير في طبيعته، بل «صنع» هذه الطبيعة أو «اعادة صنعها»، سواء أكان ذلك بالجراحة أم بالعقاقير أم بالتوليد الاصطناعي أم بتكييف «الجنينات» أو غير ذلك مما يدخل في نطاق ما يعرف اليوم بـ «الهندسة البيولوجية». ولا يقتصر التأثير المرتجى في الانسان على الجانب الجسدي فحسب، بل يتناول الجوانب النفسية والعقلية والخلقية. فما يحصل هنا، أو ما يتظر أن يحصل، خلقي بأن يكون أدعى إلى التبصر والتدبر من التقدم العلمي والتقني في الحقول الأخرى.

ما أعظم القدرة العلمية التي يتمتع بها انسان اليوم! ما أروع العلم نظاماً واسلوباً وانتاجاً، وما أشد أثره في تكوين الحاضر وصنع المستقبل! على ان هذه القدرة الهائلة سيف ذو حدين. انها قدرة على الطبيعة، وقدرة على الانسان. وهي قابلة لأن توجه للخير أو للشر. ولا نكران لما انتجت من خير في مكافحة الفقر والمرض والجهل وفي إيقاظ العقول وتنبيه النفوس ودفع معارك التحرير والتحرر. ولكن يجب أن لا ننكر أيضاً ما أحدثت من شرور في تطوير أساليب القتل والتدمير، وفي استعمار الشعوب، وفي تسلط الانسان على أخيه الانسان. واذ يُغزّر تصاعدها المرتقب وعودها الخيرة للمستقبل، فهو يؤكد بالوقت نفسه تفاقم اخطارها اذا لم يستطع الانسان أن يضبطها ويرقي عنها. ويكفيها على هذا مثل واحد، فالقدرة النووية قد تأتي منبعاً لطاقات ثرية تسد حاجات البشر وتفيض عليهم بالمنافع والنعم، وقد تستخدم لتفتيلهم وتدمير منشآتهم واشاعة الخراب في معمرهم. ومن هنا ترتبط هذه القدرة ومصيرها بالقدرة الأخرى وهي المستمدة من التراث التحرري.

ان هذا التراث هو حصيلة الجهود التي بذلتها الشعوب للارتقاء من مستوى الحيوانية والهمجية إلى مستوى الانسانية الحق. ولقد أسهم في هذه الجهود القادة الأعلام، من أنبياء ومفكرين وأدباء ومعلمين وعاملين، الذين كوّنوا رؤى لما يجب أن يرتفع اليه الانسان، فاعتنقوا ما أوحى به اليهم، ونهضوا للدعوة اليه والنضال من أجله ولتحقيقه في مجتمعاتهم أو في الميدان البشري العام. هذه الرؤى، على اختلاف صورها وأشكالها، تناول الانسان الفاضل والمجتمع الفاضل، وتتمثل في القيم التي يجب أن يسعى الانسان، فرداً أو مجموعاً، إلى اكتسابها ليستحق هذا الاسم، وليحيا حراً كريماً، وليسر لسواه اكتساب الحرية

والكرامة على أسس العدالة والاخوة والمساواة. ولم تقتصر هذه الجهود على الأفراد، بل عمت الشعوب في فترات مختلفة من تواريخها، فكانت الحركات المهادنة والثورات الصاخبة، من دينية وفكرية وسياسية واجتماعية، دفاعاً عن الحقوق الفردية والجماعية ومكافحة للظلم والاستبداد والاذلال والاستعباد وكل ما يقهر الانسان أو يحط من شأنه. فهناك اذن تراث تحرري، منه ما يخص كلاً من الحضارات التي ظهرت في التاريخ ومنه ما يعم الإنسانية كافة. وهذا التراث هو الذي جعل الانسان المعاصر يتميز عن انسان ما قبل التاريخ، وهو الذي - إن بقي حياً وفاعلاً - يغدو خليقاً بأن يمد شعوب الأرض بالقوة لمعالجة مشكلاتها ومحاربة تحدياتها وللحفاظ على الحضارة والسير بها قدماً في سبل الانبعاث والرقى.

قلنا: إن بقي حياً وفاعلاً. فأني حظ له من الحياة والفعل؟ ان الصورة هنا ذات وجهين متناقضين. فمن ناحية نرى في سلوك الانسان المعاصر كثيراً من مظاهر الأثرة والتحكم بالغير، ومن الشهوات اللاهبة لاقتناء الأشياء واكتساب النفوذ وتغليب الذات. ولا نلاحظ تطوراً جذرياً عن الانسان البدائي، أورياً خلقياً يرتفع إلى مستوى مطالب اليوم، أو مطالب الغد. ومن ناحية أخرى، تبدو التحركات الشعبية التحررية المضطربة في سائر أقطار العالم، والمنبعثة من تيقظ الشعوب وتحسسها بمساوئها ومآسها ومن المطامح والآمال الجاثشة في صدورهم لتحسين أحوالها واكتساب كرامتها. ان هذه التحركات - التي تثيرها ذكريات الماضي ودعواته وتنهات الحاضر ووثباته ورؤى المستقبل وآياته - لتأتي دليلاً على ان التطلع الانساني للتحرر والارتقاء ما يزال حياً في النفوس وباعثاً لها للنضال في سبيل الحفاظ على القيم المكتسبة وتعزيزها وتعميمها وانقاذ الحضارة من التردى الذي يهددها والمهاوي الماثلة أمامها.

ولا نريد أن يفهم من كلامنا اننا نفصل بين القدرتين العظيمين اللتين أشرنا اليهما - قدرة العلم وقدرة التراث التحرري. ذلك ان العلم هو أيضاً قدرة تحريرية وتحررية فائقة. فلکم حرر من عقول وبه من أفكار وأيقظ من نفوس! وهو يفعل هذا الفعل بقدر ما يمثل من عقلانية صافية، ومن ضبط وانضباط، وتنظيم وانتظام. ولكن ما أردنا تبياناً في ما سبق هو أن تطور العلم المعاصر قد انصرف إلى الطبيعة أكثر مما انصرف إلى الانسان، فسيطر عليها ونمى قواها أكثر مما استطاع أن ينمي قوى الانسان الخيرة. لقد وفر له وسائل متكاثرة، لكنه لم يرتفع به في مراقي الغايات، وملأه قدرات رهيبه، إن وجهته توجيهاً تحريراً جاءت بخير عميم، وإن استغلت للأطاع والأهواء كان منها بلاء وبيل وشر مستطير.

- ٥ -

إذا حاولنا الآن أن نوازن بين التحديات والاحطار من جهة وبين القدرات لمجابهتها والرد عليها ردّاً إبداعياً من جهة أخرى، فإذا نجد؟ وأي مستقبل للانسانية يرسم في الآفاق؟ ان التطلعين المعاصرين

يختلفون في رؤاهم ، فمنهم من يرى أن الاخطار تفوق القدرات ضخامة وأن الأوضاع الانسانية سائرة إلى المزيد من التردى اذا لم يسرع الانسان المعاصر إلى ضبطها والتغلب عليها ، ومنهم من يتخذ موقفاً تفاؤلياً مستنداً إما إلى القدرة العلمية والتقنية الزاخرة الكفيلة في نظره بمعالجة المشكلات الحاضرة والمقبلة ، وإما إلى المدّ التحرري المتدفق من الشعوب والمكتسح معاقل الظلم والاستبداد والفوارق القائمة بين الشعوب وفي داخلها ، وإما إلى القدرتين معاً .

ان كاتب هذه السطور ليجد نفسه أميل إلى الفريق الأول منه إلى الثاني . ذلك أن الأخطار واقعة وبيّنة ومتفاقمة . أمّا القدرات فحولها تساؤلات ، كما ذكرنا ، وإمكانات الخير فيها مشتبكة بإمكانات الشر . وليس من المحتم ، أو من الظاهر الواضح على الأقل ، ان الأولى ستتغلب على الثانية . ولذا ، فعندما نحاول استبصار الآفاق واستجلاء طلائع الأوضاع المقبلة ، تلوح لنا البدائل التالية :

١ - الحرب العالمية الشاملة المدمرة ، الناتجة عن تصارع الأنظمة المهيمنة وعجزها عن كبح أطماعها وعن ضبط القوى المتفجرة التي صنعها العلم ووضعها في أيديها .

٢ - تزايد الاضطراب السائد في العالم بسبب استمرار «توازن الرعب» والحرب الباردة بين الانظمة المهيمنة ، والحروب الموضعية المنتشرة ، والخلل الاقتصادي المتفاقم ، والمضي في إهدار الموارد وإفساد البيئة ، وانتشار الامراض الاجتماعية والخلقية .

٣ - اتفاق القوى المهيمنة في ما بينها - إما القوتين العظميين وحدهما أو بالاشتراك مع القوى التي تبلغ مبلغها أو تقاربه - على السيطرة على العالم وحراسته وتوازن مناطق النفوذ فيه وتقاسم مغانمه .

٤ - استمرار الصراع بين القوى التحررية والقوى المهيمنة ، وامتداد الأولى وانحسار الثانية ، دون ضمان أكيد لاستمرار الأولى في مسيرتها وعدم انخفافها إلى سبل الهيمنة والقمع .

٥ - اكتساب منظمة الأمم المتحدة سلطة كافية لاقامة نظام عالمي سياسي واقتصادي واجتماعي مبني على التكامل والتكافل بين الشعوب . على ان تاريخ المنظمة منذ انشائها ، والتطورات الجارية داخلها وخارجها لا تنبئ بكثير من الأمل في هذا المضمار .

لسنا ننكر ان السنين القادمة ستظهر بعض التقدم الايجابي في نطاق كل بديلة من هذه البدائل ، ولكننا لا نرى ان التقدم المنتظر سيؤدي إلى ازالة التحدي التي تمثله أو التغلب على الخطر الذي تتضمنه .

كل هذا يعود إلى المفارقة الاساسية في الحضارة الانسانية ، وهي المفارقة بين قدرة الانسان المعاصر على ما حوله وقدرته على ذاته . لقد شهد العالم خلال تاريخه ، «وفي الآونة الأخيرة بخاصة ، انقلابات

جذرية في الأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية والتقنية ، ولكنه لم يشهد انقلاباً مائلاً أو مقارباً في كيان الانسان وتوجهاته. لقد تقلص العالم وتوافقت أجزاؤه ومصائرهم. على ان الانسان ، الذي كان العامل الأول في هذا التقلص والتوافق وفي تجاوز عالمه إلى عوالم الفضاء ، ما زال يعالج مشكلاته بعقلية ضيقة ، عقلية العشيرة أو الطائفة أو الطبقة أو الأمة ، في حين ان العقلية الوحيدة التي يتطلبها هذا العصر والأعصر القادمة هي العقلية العالمية التي تشمل كوكبنا بجممله وشعوبه برمتها. ان هذه العقلية العالمية تفرض التعاون والتكافل ، بينما الحوافز التي لا تزال مسيطرة هي حوافز الطمع والسيطرة والاستئثار. ولاكتساب هذه العقلية والسلوك المجاري لها ، لا بُدَّ من تبدل جذري في الذات الانسانية. وليسمح لي في ختام هذا المقال أن أؤكد ما ذكرته في بحث سابق :

ان التبدل الجذري المنشود هو تبدل يحول ذهنية الانسان من الرضى السهل بالتوهم والخطأ إلى التوق الشاق للحقيقة والصواب ، ومن الاكتفاء والانغلاق إلى التفتح لكل نور ولكل خير مما يكن مصدره ، ومن شهوة الأخذ والاعتصاب إلى شهوة العطاء والمشاركة ، ومن الأنانية إلى الغيرية ، ومن طلب التحكم والتسلط والاستغلال إلى نشدان العدل والاخاء ، ومن الاستهانة بالكرامة الانسانية إلى تعظيمها واعتبارها أسمى المطالب وأعزها. انه تبدل يحفز إلى اثار الواجب على المطالبة بالحق ، ويميز الغايات من الوسائل ويقدمها عليها ، ويجعل للسيادة على الذات أهمية تعدل أو تفوق أهمية السيادة على الطبيعة. ان هذا التبدل هو ، في نظرنا ، السبيل الأسلم للتغلب على المفارقات الهائلة في الوضع الحضاري المعاصر ولضمان سلامته وتقدمه. ولن يغير نظرنا هذا اي اعتراض بأن هذا القول يتضمن مثالية صعبة التحقيق ، أو يتسم سمة التجريد أو التبسيط ، أو يؤدي إلى إهمال الحاجات الشعبية الملحة أو الالهاء عنها. ان الحاجة إلى هذا التبدل ليست عندنا أدنى خطورة أو أخف حدة أو إلحاحاً من أية حاجة أخرى^(٤).

ان العالم الجديد الذي يتولد يتطلب إنساناً من نوع جديد. والتغيرات الكيفية التي تحيط بنا تفرض قيام تغير كيني في داخلنا. وستظل الحضارة الانسانية في اضطراب ، وسيظل مصيرها مجهولاً ومحفوفاً بالأخطار ، ما لم يحدث هذا التغير الكيني الانساني .

هاهنا التحدي الأعظم ، والسؤال الأخطر المرتسم على أفق المستقبل.

الهوامش

- (١) مجلة (Time) ، عدد ٢٧ تشرين الثاني - نوفمبر ، ١٩٧٨ ، ص ٣٣ .
- (٢) Ruth Sivard Leger , *World Military and Social Expenditures 1977* (WMSE Publications & Leesburg , a.) , p.6 . وهي دراسة سنوية مستمرة تعدها هذه الباحثة والفريق العامل وإياها .
- (٣) المصدر ذاته
- (٤) وفي معركة الحضارة الطبعة الثالثة (بيروت ، ١٩٧٧) ، ص ٣٨٧-٩٨ .